الفصل الثانى

ألمانيا وحرب الثلاثين عاما ١٦١٨ - ١٦٤٨

لقد نشبت حرب الثلاثين عامًا بسبب الفتنة الدينية فى بوهيميا، وقد كان من الممكن تحديد ميدانها،ولكن أتيح لها أن تنتشر، مما أدى إلى أن تدخل معظم الدول الأوربية الصراع بدرجات متفاوتة، وعلى الرغم من أن الدنمرك والسويد وفرنسا وانجلترا وسافوى والأراضى المخفضة قد لعبت دورا فى هذه الحرب، فقد كانت ألمانيا بصفة خاصة هى المسرح الأصيل لهذه المأساة. كما أن أهل بوهيميا كانوا أوفر هذه الشعوب حظا من الخسائر.

وإذا أردنا أن نتصور الظروف التى اندلعت فيها هذه الحرب. أو بمعنى آخر أن نتقصى أسباب هذه الحرب.. نجد أن صلح أوجزبرج كان قد أنهى الحرب الدينية فى ألمانيا فى عام ١٥٥٥، وقد حاول هذا الصلح التوفيق بين مطالب الكاثوليك والبروتستنت على السواء، ولكن هذه المحاولة أخفقت.

وكان من أهم أسباب هذا الفشل ماجاء فى صلح أوجزبرج بشأن

المحافظة على ممتلكات الكنيسة الكاثوليكية فى ألمانيا وذلك أن هذ الممتلكات سرعان ماصارت -بعد هذا الصلح- موضع أطماع البروتستنت المنتصرين.

كما أن أوجزبرج لم يعترف بالعقيدة الكلفنية أو بمبدأ التسامح الدينى بصفة عامة، وظلت الكلفنية فى ألمانيا لا تجد أى أساس قانونى يمكنها الارتكاز عليه ومع ذلك فقد ساد السلام مدة طويلة فى ألمانيا بالرغم من هذا القصور الواضح فى صلح أوجزبرج ولعل السبب فى ذلك هو وجود نوع من التوازن فى القوى بين تلك الجماعات أو القوى الثلاثة: الكاثوليك، وأتباع لوثر، وأتباع كلفن، مما أدى إلى ذلك الهدوء العجيب بينهم، لأن الصدام المسلح قد يؤدى إلى أوخم العواقب، الأمر الذى منع هذه الجماعات من التطرف فى تعصبها.

ومن ناحية أخرى فقد بدا أن هذه الهدنة الطويلة بعد هذا الصلح كانت بصفة عامة فى صالح البروتستنت فقد استطاع اللوثريون والكلفنيون العمل على نشر مذهبهم دون أن يلقوا معارضة عنيفة، حتى أصبحت ألمانيا الشمالية بروتستنتية، كما تسرب هذا المذهب الجديد إلى الجنوب، أى فى النمسا وبافاريا.

أما الكاثوليك، فلم يكن من المتوقع أن يظلوا صامتين إزاء هذا الانتشار البروتستنتى فى معاقلهم السابقة، وخاصة بعد أن استمدوا قوة كبيرة من حركة الإصلاح الكاثوليكى مما بيناه آنفا وكان الفضل الأكبر لهذه المواجهة الكاثوليكية. للانتشار البروتستنتى راجعًا إلى مجهودات الجزويت اليسوعيين، ففى عهد الإمبراطور رودلف الثانى (١٥٧٦-١٦١٢) استطاع الجزويت أن ينفذوا إلى كثير من مظاهر

النشاط فى حذر ودون ضجة، فخدموا فى الإمارات المختلفة كآباء يقومون بسماع الاعتراف أو كوزراء للأمراء وفى هذه الحالة كانوا هم الذين يوجهون سياسة هؤلاء الحكام، وأسس الجزويت المدارس، وبعثوا بالمنصرين إلى أماكن مختلفة ونشطوا فى تدعيم الكاثوليكية.

وفى بداية القرن السابع عشر، كان نجاح الجزويت كبيرا لدرجة أن البروتستنت اضطروا لى التآلف فيما بينهم لمواجهة ذلك الخطر، فألفوا فيما بينهم الاتحاد البروتستنتى Protestant Union فلم يلبث الكاثوليك أن واجهوا هذا الاتحاد البروتستنتى بتأسيس الحلف المقدس The Holy League فى عام ١٦٠٩. ومنذ ذلك التاريخ انقسمت ألمانيا الى معسكرين كبيرين. وكان الكاثوليك أقوى تنظيما برئاسة مكسيليان دوق بافاريا بينما ظل البرتستنت مترددين - بسبب انقساماتهم القديمة بين لوثريين وكلفنيين - فلم يعضدوا تعضيدًا كاملاً رئيس الاتحاد البروتستنتى، وهو فردريك الخامس ناخب البلاتين Platine وكان من أتباع كلفن.

وكان المحرك الأول للحرب يسوعيا من الجزويت تقلد تاجا وهو فرديناند صاحب أستيريا، والذى أصبح فيما بعد الإمبراطورفرديناند الثانى وكان فرديناند أول طالب يتلقى علومه فى كلية يسوعية يصل إلى العرش الإمبراطورى وكانت تعاليم الجزويت قد أفعمته بالتعصب، حتى سيطرت عليه عاطفة دينية متأججة قوامها المقت الشديد للبروتستنت والتصميم على اجتثاث جذورهم من ممتلكاته فأنزل بهم سلسلة من الاضطهادات فى أستيريا عام ١٦١٨، وواصلها فى بوهيميا ثم تابعها فى سائر أنحاء أملاكه النمسوية، ونجح فى تحقيق هدفه وهو تصفية «المارقين» ووضع الحياة الدينية والفكرية فى بلاده تحت حكم جماعة الجزويت الشديد

الوطأة، إلا أن الثمن كان باهظًا وهو التدمير الشديد الذى أصاب بناء المجتمع البوهيمى كله، ثم ما أعقب ذلك - بطريقة غير مباشرة - من اندلاع حرب الثلاثين عامًا.

وقد مرت هذه الحرب الطويلة فى عدة أدوار: وأول هذه الأدوار كان الدور البوهيمى البلاتينى (١٦١٨-١٦٢٣) ففى هذا الدور طلب الإمبراطور فرديناند مؤازرة الحلف الكاثوليكى المقدس فأجابه إلى رغبته مكسيليان دوق بافاريا رئيس هذا الحلف- كما ذكرنا- هذا بالإضافة إلى أن البروتستنت فى بوهيميا لم يلبثوا أن اعلنوا انتخاب رئيس الاتحاد البروتستنتى فردريك الخامس ناخب بلاتينه - الراين - ملكا عليهم فى عام ١٦١٩، فأراد مكسيليان أن يخلع غريمه فردريك عن هذا العرش.

وهكذا اندلعت نيران هذه الحرب ولكن سرعان ما انهزم ملك بوهيميا فى واقعة التل الأبيض White Hill خارج براغ فى نوفمبر ١٦٢٠ أمام قوات الحلف الكاثوليكى وقوات الإمبراطور فرديناند الثانى، وهكذا استولى الإمبراطور على بوهيميا، وأخذ يعمل لعودة الكاثوليكية واستقرارها بها.

وكادت تنتهى الحرب. إلا أن الامبراطور لم يكتف بذلك، فأنه لم يلبث أن أعلن خلع فردريك ثم جرده من أملاكه ومنحها لمكسيليان دوق بافاريا وأعطاه الحق فى الاستيلاء على هذه الممتلكات، إلا أن هذه الممتلكات كانت موزعة ومتناثرة فى جنوب ألمانيا.. من حدود الراين إلى بوهيميا، وتعرف باسم البلاتينات، فصار من واجب مكسيليان الاشتباك فى عدة معارك قبل أن ينجح فى الاستحواذ على هذه الممتلكات تنفيذًا لقرار الامبراطور.

ثم إنه سرعان ما استجد عامل آخر، وأخرج النضال من هذا النطاق المحلى إلى مجال أوسع، ذلك أن البروتستنت فى أوربا أفزعهم الانهزام الذى أصاب البروتستنتية فى ألمانيا، كما أن تجريد فردريك الخامس من أملاكه، جذب إليه عطف البروتستنت فى أوربا. وكان فى مقدمة العاطفين عليه جيمس الأول ملك إنجلترا، وهو الذى كان زوج ابنته اليزابيث، ولكن جيمس الأول لم يرد التدخل فى هذه الحرب خوفا من إغضاب أسبانيا الكاثوليكية، وكان جيمس الأول يبنى سياسته الخارجية على أساس وجود تفاهم بين إنجلترا أكبر دولة بروتستنتية - وأسبانيا - أكبر دولة كاثوليكية - من أجل تحقيق السلام فى أوربا وعلى ذلك آثر جيمس المفاوضة، والوصول إلى حل للمسألة بالطرق السلمية، إلا أن آماله فى التدخل الأسبانى لفض المنازعات فى ألمانيا لم تتحقق.

كما أن شارل عمانويل Charles Emannel صاحب سافوى كان من الذين عطفوا على البروتستنت فى ألمانيا، وقد قدم لهم الأموال التى استخدمت فى تجنيد جيش من المرتزقة لمعاونة الاتحاد البروتستنتى. وفى عام١٦٢٥ استجاب الملك كرستيان الرابع Christian IV ملك الدنمرك لنداء البروتستنت فى ألمانيا.. وعندئذ بدأ الدور الثانى (الدنمركى) فى حروب الثلاثين سنة.

ولم يستجب ذلك الملك اللوثرى لنداء البروتستنت فى ألمانيا فقط لاهتمامه البالغ بالعقيدة البروتستنتية، فقد كان يحدوه إلى ذلك - بدرجة أعلى - شهوة جارفة للحصول على مغانم الكنيسة الكاثوليكية وكان من بين أهدافه الحصول لأبنائه على حصة محترمة من إيرادات بعض الأسقفيات فى شمال ألمانيا. ولم تكن الرغبة فى أملاك الكنيسة أمرًا

مقصورًا على الدنمرك وإنما شارك فيها على نطاق واسع الأمراء البروتستنت فى سكسونيا وهكذا ومع بعض التشجيع من الملكية الانجليزية- قام نوع من التحالف بين الطامعين، كما تم حشد جيش ووضعت خطة للمعركة.

وبينما كان يدبر كل هذا فى الشمال، طرأ تغيير عام على التوجيه الحربى للقوات الكاثوليكية، فإن الانتصارات المبكرة لحركة الإصلاح الكاثوليكى فى بوهيميا والبلاتين لم تحرزها القوات الإمبراطورية تحت قيدة فرديناند، وإنما أحرزتها الفرق الألمانية تحت قادة مكسيليان صاحب بافاريا، على أن اعتماد الإمبراطور بهذه الصورة على جار يحميه، وقد يصبح منافسا له، كان أمرًا لا يطيقه الإمبراطور، وهكذا تطلعت سياسته إلى جيش إمبراطورى يخضع لقيادة الإمبراطورية، ونبعت من هذه السياسة شخصية غامضة وقوية هى شخصية البرت وينلاس فون ولنشتين Albert Wanelas Van Wallenafien أمير فريدلاندFrieblandالذى عرف غالبًا باسم ولنشتين Wallenafien وقد تقدم هذا الرجل إلى الإمبراطور وعرض عليه أن يقدم له جيشا على نفقته الخاصة غير مشترط شيئًا سوى أن يحتفظ جيشه بالغنائم، بينما يكون نصيب الإمبراطور ما يغنم من المدفعية والذخائر.

ونجح ولنشتين فى جمع جيش كبير نتيجة الوعود التى أخذ يبذلها بشأن إعطاء الجنود المرتبات الكبيرة عدا الاسلاب والغنائم فالتف حوله عدد كبير من الجنود المرتزقة والمغامرين، الذين ضموا بينهم كذلك عددًا من البروتستنت، وهؤلاء جميعا لم يكن يعنيهم انتصار الكاثوليكية أو انهزامها، حيث لم تكن تربطهم غير الرغبة فقط فى الحصول على المغانم من هذه الحرب.

أما ولنشتين نفسه، فمن المعروف أنه لم يكن يبغى مجرد خدمة الإمبراطور فحسب، بل إنه كان هو الآخر لديه مشروعات القضاء على حكم الأمراء المحليين فى ألمانيا،ثم إنشاء دولة المانيا قوية على أنقاض هذه الإمارات على أن تكون هذه الدولة خاضعة للإمبراطور، وبطبيعة الحال يستحوذ ولنشتين على النفوذ الداخلى فى الدولة الجديدة.

وقد بدأت الحرب فى هذا الدور بأن انتصر تيلى Tilly على جيش الملك كريستيان الرابع فى موقعة لوتر Lutter فى أغسطس ١٦٢٦. إلا أن انتصار والنشتين فى واقعة كوزل Cozel كان له نتائجه الخطيرة فقد اندفع والنشتين بعد هذا النصر الكبير إلى داخل الأراضى الدنماركية ولم يمنعه من فتح الدنمرك ذاتها سوى عدم توفر أسطول لديه.

ولم تكن أغراض والنشتين فى هذا النضال دينية بقدر ماكانت سياسية فقد بذل والنشتين جهده من أجل إحياء سلطة الإمبراطورية وتدعيم سيطرتها، على أنقاض السلطات المحلية فى الإمارات.. الأمر الذى أثار كراهية النبلاء الكاثوليك والبروتستنت على السواء وتسبب فى عدائهم لولنشتين، على أن والنشتين لم يلبث أن تزايدت مطامعه،فأسس لنفسه إمارة فى ساجان Sagan ثم حصل من الإمبراطور فرديناند الثانى على دوقية مكلبرج وقد نقم الأمراء على والنشتين لذلك، لأنهم جدوا أن هذا المغامر قد وصل إلى مرتبة مساوية لمرتبتهم، هذا بالإضافة إلى أنهم وجدوه وقد أصبح صاحب الأمر والنهى ويتصرف كما يشاء فى الأراضى الألمانية.

ولقد كان من أهداف والنشتين كذلك وضع قوة بحرية ألمانية فى البحار الشمالية، كى يتمكن من إخضاع الممالك الاسكندنافية ولذلك فقد أخذ يعمل لفرض سيطرته على ساحل البلطيق الجنوبى، فاحتل ويسمار

Wismar ثم قام بمحاصرة ستراسند Straslund إلا أن أهلها دافعوا عنها دفاعًا بطوليًا، ثم تقدم لمساعدتهم ملك السويد جوستاف أدولف Gostavus Odulphus وكان هذا الملك يخشى من انتصارات والنشتين، ومن أن يتوطد سلطان الامبراطورية فى بحر البلطيق، فأرسل أسطولا صغيرا لمساعدة ستراسند من ناحية أخرى، لم يشأ الحلف الكاثوليكى أن يبعث بقائد جيوشه تلى Tilly لمساعدة والنشتين خوفا من سطوة هذا الأخير، فكأن أعضاء الحلف الكاثوليكى بموقفهم هذا قد آثروا أن تتعرض الكاثوليكية ذاتها للخطر، على أن تتعرض سلطتهم وإماراتهم للضياع.

ولم تلبث أن تزايدت صعوبات والنشتين عندما وجد أن السويد والدنمرك قد نبذتا الخلاف القائم بينهما واتفقتا على مواجهة والنشتين، وبدا أن هناك إجماعا من إنجلترا وفرنسا وهولندا على معاونة الدنمرك، وعلى هذ طالب والنشتين بالصلح مع الدنمرك وتم عقد الصلح بالفعل بين الطرفين فى لوبك Lubeck فى عام ١٦٢٩، على أساس أن تسترد الدنمرك الأراضى التى أخذت منها فى نظير أن تتعهد بعدم التدخل مرة أخرى فى شئون ألمانيا.

على أنه فى غضون ذلك الوقت، كانت الانتصارات الكاثوليكية قد بلغت ذروتها فى ألمانيا، فقد أخرج صلح لوبك الدنمرك من النضال، ولم يبق فى ألمانيا جيش قادر على مقاومة الإمبراطور، وعلى ذلك بات متوقعا أن يستغل الإمبراطور هذا النجاح لقمع البروتستنتية فى ألمانيا، وبالفعل صدر مرسوم فى مارس ١٦٢٩ لاسترجاع أملاك الكنيسة، وبمقتضى هذا المرسوم، كان على البروتستنت أن يعيدوا للكنيسة الكاثوليكية الأراضى

التى كانوا قد استولوا عليها من معاهدة بساو Pasau فى عام ١٥٥٢ وصلح أجزبرج فى عام ١٥٥٥. وعلى هذا تجمعت قوى البروتستنت لمواجهة تلك الاخطار المحدقة بها.

وكان مما بعث الأمل فى إحياء قوة البروتستنت فى هذه الظروف التى ظهر فيها كأنما قد تم القضاء تماما على البروتستنتية فى ألمانيا، أن الإمبراطور اتخذ قرارا بالاستغناء عن والنشتين وطرده من خدمته، وقد اضطر الإمبراطور إلى إصدار هذا القرار لأن جيش والنشتين أخذ يعيث فى البلاد فسادًا شديدًا، ثم أن والنشتين كان قد أثار عداء النبلاء الكاثوليك بسبب مشروعاته فى إعادة السيطرة الإمبراطورية وفى هذا ما فيه من انتقاص لسلطاتهم ومكانتهم.. وهكذا طلب الحلف الكاثوليكى برئاسة مكسيليان دوق بافاريا فى يوليو ١٦٣٠ عزل والنشتين من قيادة الجيش، ولقد اضطر فى آخر الأمر إلى إجابة الحلف إلى طلبه خوفا من خروج هذا الحلف عليه، وهكذا تخلى والنشتين عن قيادة الجيش وحل محله تلى Tilly وهكذا نجد أنه فى الوقت الذى ظهر فيه كان الإمبراطور قد تحرر نهائيًا من سلطان الحلف الكاثوليكى، وقطع شوطًا كبيرًا فى سبيل توحيد سيطرته وتركيزها فى ألمانيا، استعاد الحلف الكاثوليكى مكانته السابقة، وفقد الإمبراطور الأداة التى تجعل سيطرته ممكنة.

وفى غضون ذلك الوقت حدث تغيير آخر فى قصة هذه المأساة أو تلك الحرب الطويلة، إذ تدخل ملك السويد تدخلاً فعليًا فى هذه الأحداث، وبذلك بدأ الدور الثالث من هذه الحرب أو مايعرف بالدور السويدى (١٦٣٠ - ١٦٣٥).

ففى الوقت الذى أرغم فيه والنشتين على التنحى عن القيادة نزل فى

ألمانيا جيش من السويد بقيادة جوستاف أدولف، وكان هدف ملك السويد الفعلى من هذه الحرب هو جعل بحر البلطيق بحيرة سويدية، وعلى ذلك فقد انزعج الملك السويدى من تدعيم نفوذ الإمبراطور فرديناند الثانى فى ألمانيا الشمالية، ورأى أنه من الضرورى القضاء على بيت الهابسبورج فى ألمانيا من أجل المحافظة على كيان وصيانة مصالحها الحيوية من تجارية وسياسية فى بحر البلطيق والأرض الشمالية الألمانية، ويجب أن لا ننسى فى هذا المضمار أن ملك السويد كان بروتستنتيا صميما، ويؤلمه أن يرى تلك السيطرة الكاثوليكية على ألمانيا كلها بفعل انتصارات القوات الكاثوليكية.

وهكذا نزل جوستاف بجيشه (حوالى ١٥٠٠٠ مقاتل) إلى الأراضى الألمانية وطلب من الأمراء البروتستنت الانضمام إليه فى مواجهته للكاثوليك، إلا أن هؤلاء الأمراء البروتستنت أظهروا عدم ارتياح لتسليم بلادهم إلى ملك أجنبى إلا أنه فى غضون ذلك الوقت لم يلبث أن وقعت بعض الأحداث التى جعلت الأمراء البروتستنت يغيرون من موقفهم، فقد حدث أن تحالفت فرنسا- عملاً برأى وزيرها ريشليو- مع جوستاف أدولف، وان كانت فرنسا لم تقدم لحليفها سوى الأموال التى تستعين بها السويد على مواصلة القتال ضد الإمبراطور.

كما أن جيش الحلف الكاثوليكى قام فى غضون هذه الفترة بمهاجمة مدينة مجدبرج Magdeburg فى عام ١٦٣١، وأوقع تلى Tilly وجنوده بأهلها مقتلة عظيمة، وكانت هذه الكارثة كافية لكى يبادر الأمراء البروتستنت بالانضمام إلى ملك السويد. وهكذا تقدم جوستاف أودلف فى سبتمبر ١٦٣١ لملاقاة قوات الحلف الكاثوليكى، وأمكن للملك السويدى

أن يوقع بتلى وجيشه هزيمة ماحقة فى براتينفلد Briantenfeld بالقرب من ليبزج، وقد ترتبت على ذلك نتائج هامة.. فقد نجحت البروتستنتية، كما صارت ألمانيا بأسرها وفى فترة قصيرة تحت رحمة ملك السويد، وهكذا بدأ الكاثوليك يشربون من نفس الكأس التى سبق أن أذاقوها للبروتستنت.

وقد غدا أسلوب جستاف فى الحرب نموذجًا يتدارسه طلاب المدارس العسكرية فى كل انحاء أوربا، فقد تقدمت القوات البروتستنتية نحو براج شرقًا ونحو ماينز Mainz وورمز Worms غربًا، ثم جاءت هزيمة تلى الأخيرة فى ليك فى بافاريا، وأصيب تلى نفسه بجراح قاتلة وتوج جوستاف هذه المجهودات بدخوله ميونيخ مقر الحلف الكاثوليكى وصارت فيينا ذاتها وهى مقر الإمبراطور مهددة وقد أصبحت كل هذه الانتصارات عملاً جليلاً يبهر الأبصار ولكن المظهر فى الانتصارات السويدية كان يفوق الجوهر، إذ لم يكن من المتوقع أن يرضى الألمان عن جيش أجنبى لا يتقاضى أجورا كافية، ولا يعيش إلا على خيرات البلاد، فتوانى بروتستنت ألمانيا فى مساعدة السويديين واتهموهم بحق بأن الحصول على أراض ألمانية كان أحد أغراضهم الرئيسية، وعلى الرغم من آمال ريشيليو، فإن الكاثوليك وقد أثارتهم عمليات السلب المنظم التى قام بها الجند السويديون لم يعتبروهم أصدقاء لهم وإنما اعتبروهم أعداء وعلى ذلك هاجمت كل من السويد وبافاريا الأخرى بدلا من الهجوم المشترك على قوات الإمبراطور. وقد خرج جستاف من هذا الصراع منتصرًا إلا أنه كان فى انتظاره جيش إمبراطورى أعاد تكوينه والنشتين وأصبح قائدا له، وكان فى انتظاره ليحاسبه حسابًا عسيرًا، وكان هذا الجيش من القوة – وخاصة بعد أن انضمت إليه قوات مكسيليان – بحيث استطاع أن يوقع أول هزيمة بجيوش جستاف فى نورمبرج Nuremberg إلا أن

جستاف لم تهن عزيمته، بل أوقع بولنشتين وجيشه هزيمة ساحقة فى لتزن Lutzen (١٦ نوفمبر ١٦٣٢) غير أن خسارة البروتستنت كانت فادحة لأن قائدهم جستاف لقى حتفه فى المعركة، وذكر أنه عندما سأله أحد رجال الدين عن اسمه عندما كان ملقى على الأرض مثخنا بجراحه القاتلة قال «أنا ملك السويد الذى يوقع على عقيدة الشعب الألمانى وحريته بدمه».

واستمرت الحرب، وقد فقدت بوفاة جستاف البقية الباقية من مثلها العليا البروتستنتية، ولم تكن السويد لتقبل الانسحاب من حرب أعطتها غنائم كثيرة فى المدن الألمانية الغنية ومنحتها صوتا مسموعا فى أوربا، وإذا كان جستاف قد اختفى من الميدان فقد كان هناك الوصى على العرش السويدى فى فترة قصور ابنة الملك الراحل الطفلة كرستينا Christina وكان هذا الوصى سياسيا حكيما شارك الملك جستاف فى مسئوليات الحكم، وحمل مدة طويلة أعباء الحكومة الداخلية. وقد صمم ذلك الوصى اكزنستيرنا Oxenstierna على أن يحتفظ للسويد بالزعامة على ألمانيا البروتستنتية، وفى عهده حاولت السويد الانتصار فى الحرب التى استمرت بعد وفاة جستاف معتمدة على ضباط جستاف وجيشه، إلا أن الإمبراطوريين استطاعوا هزيمة الجيش البروتستنتى فى نوردلنجن Nordlingen فى سبتمبر ١٦٣٤، وهكذا دارت الدائرة مرة أخرى على البروتستنت، وأمكن للكاثوليك أن يؤمنوا مواقعهم فى ألمانيا مرة أخرى، ولم يكن والنشتين هو قائد جيش الإمبراطور عند انتصار نوردلنجن، بل كان يقوده فردنند ابن الإمبراطور. ويبدو أن وفاة جستاف أدولف التى حرمت البروتستنت من قائدهم الممتاز، كانت قد أزالت الباعث على الاستنجاد أصلا بوالنشتين كذلك بدا أن والنشتين لديه مخططات واسعة

للاستيلاء على السلطة، وعلى أية حال فقد اتهمه الإمبراطور بالخيانة وتخلص منه بقتله فى ٢٥ فبراير ١٦٣٤ وقبل موقعة نوردلنجن بستة أشهر.

على أن هزيمة نوردلنجن أوضحت أن السويد من غير قائدها العظيم لا تستطيع مواصلة النضال ضد الإمبراطورية، وتلك حقيقة أقنعت ريشيليو وزير فرنسا بأن التدخل الفعال قد صار ضروريا فى هذه الحرب الطويلة وهكذا بدأ الدور الرابع والأخير من أدوار حرب الثلاثين عامًا وهو (الدور السويدى الفرنسى١٦٣٥-١٦٤٨) والواقع أن هذا الدور من أدوار الحرب طور علمانى تماما فقد فقدت الحرب ذلك الطابع الدينى الذى تميزت به أصلاً واختفى فى غمرة النضال بين أسرتى البوربون والهابسبورج للسيطرة على أوربا، والواقع أن روح الحرب الدينية، كانت قد توارت تقريبا فى نضال اتحدت فيه فرنسا الكاثوليكية والسويد البروتستنتية مع جمهورية هولندا البورتستنتية- فى معاهدة كومبين Compiene فى ٢٨ أبريل ١٦٣٥- ضد ألمانيا اللوثرية والنمسا الكاثوليكية وأسبانيا الكاثوليكية، وأخذت سافوى تبيع صداقتها تارة لهذه وتارة أخرى لتلك، وعندما اصبحت المسائل الخطيرة موضع النزاع لا تتعلق بالعقيدة أو الطقوس الدينية، وانما تتعلق بإمكان السماح للسويد بالاحتفاظ ببوميرانيا، ولفرنسا باستبقاء الألزاس، فقدت الحرب الجانب الأكبر من دوافعها الحماسية للعقيدة، ولكنها امتلأت بعمليات الزحف والتراجع والحصار والتسليم والحرق عمدا والقتل، وكل ألوان النكبات التى كان فى مقدور الفرق المرتزقة المتوحشة الجائعة أن تنزلها بشعب لا حول له ولا قوة.

وبدخول فرنسا فى هذه الحرب الطويلة، لم تصبح هذه الحرب حربا

المانية، أما تقرير فرنسا التدخل تدخلا مباشرا فكان مبعثه الرغبة فى خدمة مصالحها السياسية ذلك أن انهزام البروتستنت فى موقعة نوردلنجن جعل هؤلاء يرتمون فى أحضان فرنسا، وإذا كان ريشيليو قد امتنع فى الدور السابق عن التدخل المباشر فى الحرب، فالسبب فى ذلك أن النفوذ الأكبر كان حينئذ من نصيب السويد وملكها جستاف أدولف، أما الآن فقد نجم عن فشل السويد أن صار الطريق ممهدا لتغلب النفوذ الفرنسى إذا شاءت فرنسا الدخول فى الحرب، وكان واضحا أن فرنسا سوف تتمكن حينئذ من تحقيق مآربها السياسية بفضل هذا النفوذ المتفوق، وذلك ماكان يتوقعه ويريده وزيرها ريشيليو.

ثم من الأسباب التى حملت ريشيليو على التعجيل بالتدخل، أنه كان هناك أمل بعد هزيمة البروتستنت فى نورد لنجن أن تنتهى الحرب فى ألمانيا وانتهاء الحرب على هذه الصورة معناه ضياع الفرصة على فرنسا لخدمة مصالحها، والسماح بتقوية سلطان الهابسبورج فى ألمانيا وذلك ماكانت تخشاه وتأباه فرنسا.

أما كيف كان هناك أمل فى إمكان إنهاء الحرب بعد واقعة نوردلنجن فى سبتمبر ١٦٣٤، فتفسير ذلك أن بعض الأمراء من البروتستنت وفى مقدمتهم جون جورج ناخب سكسونيا، كانوا يخشون من تغلب نفوذ السويد ومن تغلب نفوذ فرنسا على السواء فى المانيا بسبب هذه الحرب التى كانت تتحول سريعا من حرب تهتم بمسألة المذهب والعقيدة إلى حرب أوربية تهتم بالمسائل والمصالح السياسية ولذلك فقد كان من نتائج هزيمة نورد لنجن أن بادر جون جورج ناخب سكسونيا إلى استئناف المفاوضات مع الإمبراطور فرديناند الثانى، وفى يونيو ١٦٣٥ توصل

الفريقان إلى عقد الصلح فى براج، وبمقتضى هذا الصلح، أعيد النظر فى مرسوم استرجاع أملاك الكنيسة الذى كان قد صدر فى عام ١٦٢٩، فتم الاتفاق فى صلح براج على تحديد عام ١٦٢٧ تاريخا لاسترجاع أملاك الكنيسة التى أخذت بعد هذا العام وذلك بدلا من سنة ١٥٥٢التى كانت قد تحددت تاريخا لذلك فى مرسوم الاسترجاع الذى صدر فى مارس ١٦٢٨، وبناء على ذلك فإن الأراضى والأملاك التى تكون فعلاً يوم ١٢ نوفمبر ١٦٢٧ فى حوزة أصحابها سواء كان هؤلاء قد استولوا عليها قبل صلح أوجزبرج فى ١٥٥٥ أم بعد هذا الصلح، تبقى فى حوزة أصحابها وتستمر فى حوزتهم لمدة خمسين عاما، أو أنها تعاد لأصحابها إذا كانت قد أخذت منهم تطبيقا للمرسوم السابق أى للمرسوم الذى صدر فى ٦ مارس ١٦٢٩، وعلى أن تبقى فى حوزتهم لنفس المدة المنصوص عليها، وفى بحر هذه المدة يجرى الاتفاق بشأن هذه الأراضى والأملاك بالطريق الودى.. ومعنى ذلك أن صلح براج جعل تنفيذ مرسوم مارس ١٦٢٩ يتأجل فعلاً خمسين سنة، وفى ذلك ترضية للبروتستنت.

وعلى أية حال فقد اعترف غالبية الأمراء بصلح براج لأنه كان فى الواقع تسوية طيبة وحكيمة بقدر ماسمحت به الظروف حينذاك، فقد حصل الموقعون البروتستنت على ضمان حريتهم الدينية وعلى استبقاء الأراضى والإيرادات التى كانوا قد أخذوها من الكنيسة الرومانية مدة خمسين عاما.

ومما يجب ملاحظته أن صلح براج لم يشمل الكلفنيين ومع ذلك فإن قبول أكثر الأمراء البروتستنت لهذا الصلح كان كافيا لأن يكفل عودة السلام إلى المانيا ١٦٣٠، لو أن المصالح الأجنبية لم تتدخل على يد فرنسا

لتحريك الحرب ثانية، ولذلك – وكما ذكرنا – فقد أصبحت حرب الثلاثين عاما فى هذا الدور الأخير حربا سياسية بحتة أساسها النضال بين أسرة الهابسبورج والبوربون للسيطرة على أوربا.

وكان هناك ميدانان للحرب، أحدهما تشغله الحرب من جانب فرنسا التى تقدمت بنشاط فى داخل ألمانيا، والآخر تشغله الحرب من جانب السويد التى تقدمت من ناحية البلطيق إلى قلب ألمانيا وبذل الامبراطور قصارى جهده لوقف هذا الزحف المزدوج، أما الشعب الألمانى نفسه فقد كان موقفه من هذا النضال موقف المتفرج لأنه كان قد انهكه التعب وصار لايرغب سوى نهاية هذه الحرب بأية صورة من الصور ولمصلحة أى من الطرفين المتنازعين.

وفى بداية الأمر انتصر الإمبراطوريون فى عام ١٦٣٦ وأجبروا السويديين على الانسحاب والارتداد إلى السويد، كما دفعوا الفرنسيين أمامهم حتى صاروا يهددون باريس ذاتها.

ولكن أمد هذه الانتصارات كان قصيرا. فلم يلبث أن تمكن الفرنسيون من إجلاء أعدائهم عن بلادهم، واستطاع السويديون بقيادة بانر Baner أن يحرزوا انتصارا حاسما فى واقعة ويتستوك Wittstock فى أكتوبر عام ١٦٣٦ ونتيجة لهذا الانتصار سقطت فى قبضة السويد كل من براندنبرج وبوميرانيا وسكسونيا وثورينجيا وجزء من فرنكونيا.

وكان لوفاة الإمبراطور فرديناند الثالث فى بداية عام ١٦٣٧ وتولى فريديناند الثالث – وكان أقل منه كفاءة – أثره فى إضعاف موقف الإمبراطوريين.

واستمرت الحرب فى صالح فرنسا والسويد فاستطاع الفرنسيون فى

الغرب الاستيلاء على الالزاس فى ١٦٣٩، وحاول البابا عدة مرات أن يعقد صلحا ينهى هذه الحرب دون جدوى، أما السويديون فقد تقدموا فى عام ١٦٤١ حتى باتوا يهددون فيينا ذاتها.

وفى عام ١٦٤٦ انضمت القوات الفرنسية الى القوات السويدية وفى معركة زوسمار شاوسن Zusmarshausen فى مايو ١٦٤٨ أوقع القائدان السويدى والفرنسى بخصمهما مكسميليان البافارى هزيمة ساحقة.

وبعد هذه الواقعة الأخيرة، اضطر الإمبراطور إلى قبول الصلح، بعد أن تبين عجزه التام عن متابعة الحرب منفردا، وقد تم التوقيع على الصلح فى مونستر فى وستفاليا فى ٢٤ أكتوبر عام ١٦٤٨، وبهذا الصلح انتهت حرب الثلاثين عاما.

ويعتبر صلح وستفاليا من التسويات الفائقة الأهمية فى تاريخ أوربا الحديث لأنه ظل الأساس الذى تستند عليه الدول الأوربية فى علاقاتها الرسمية منذ وقت إبرامه فى ١٦٤٨ إلى قيام الثورة الفرنسية فى ١٧٨٩ كذلك تبدو أهمية هذه الوثيقة التاريخية الهامة - الصلح - لأنه تناول مسائل متنوعة سواء كانت داخلية خاصة بألمانيا أم دولية خاصة بالدول المعنية الأخرى.

كانت أهم الموضوعات التى تناولها هذا الصلح هى وضع قاعدة جديدة للسلام بين البروتستنت والكاثوليك، فقد اعتمد هذا الصلح المبادئ التى قررها صلح بساو فى عام ١٥٥٢ وصلح أوجزبرج فى ١٥٥٥، وفحواها أن لكل أمير الحق فى اختيار المذهب الذى يسرى فى إمارته ولكن مع فارق هام هو، أن صلح وستفاليا اعترف رسميا بمذهب كالفن، فشمل التسامح الدينى أتباع كالفن كما شمل أتباع لوثر من قبل والواقع أن هذا الصلح

لم يمنح التسامح للأفراد بل أبقاه كما كان العهد سابقا مقصورا على الأمراء

أما فيما يتعلق باسترجاع أملاك الكنيسة الكاثوليكية، فقد اعتبر عام ١٦٤٢ تاريخا يجرى على أساسه الفصل فى الأملاك التى تبقى فى حوزة كل من الكاثوليك والبروتستنت من أسقفيات وأراضى الكنيسة فيبقى كل فريق منهما محتفظا بما كان فى يده فى أول يناير عام ١٦٤٢ وذلك بدلا من عام ١٥٥٢ وهو التاريخ الذى تحدد فى مرسوم ١٦٢٩ وبدلا من عام ١٦٣٧ وهو التاريخ الذى جاء فى صلح براج فى مايو ١٦٣٥، وأهمية هذا القرار أنه أبقى فى يد الكاثوليك جميع الأسقفيات الكاثوليكية فى الجنوب، بينما أبقى فى أيدى البروتستنت جميع الاسقفيات والأراضى فى الجهات الشمالية.

أما الموضوع الهام الثانى الذى تناوله هذا الصلح فهو موضوع اقتسام الغنائم بين المنتصرين فقد حصلت السويد على عدة أسقفيات فى الشمال، ثم حصلت على الجزء الأكبر من بوميرانيا الغربية، وبفضل هذه الأملاك الجديدة صارت للسويد رقابة فعالة على مصبات الأنهار الألمانية وهى الأودر Oder وإلب Elbe ووزر Wesser وبذلك أحرزت السيطرة التى كان يريدها جوستاف أدولف على بحر البلطيق.

أما فرنسا فقد استولت على أراضى الألزاس النمسوية ومعها بريساك Breiasck ما عدا مدينة ستراسبورج الحرة وبعض المناطق الأخرى الأقل أهمية، والتى ظلت فى حوزة الأمراء الذين كانوا تابعين للإمبراطورية.

أما الموضوع الهام الثالث الذى حواه هذا الصلح الفريد فكان يمس

الأوضاع فى ألمانيا ذاتها، فقد نال الأمراء الألمان فى هذا الصلح تأكيدات بحقوقهم فى السيادة فصار لهم الحق فى عقد المحالفات فيما بينهم أومع الدول الأجنبية. فأصبحت الإمارات من الناحية القانونية فى حكم المستقلة الأمر الذى ترتب عليه أن صار تفكك أوصال ألمانيا كاملاً.

وقد نال ناخب براندنبرج تعويضا عن بوميرانيا الغربية التى أخذتها السويد، فأعطى أسقفيات مجدبرج هالرشتاد Halherstad ومينون Minoen وكامين Camin ثم تدعمت حقوقه الوراثية على بوميرانيا الشرقية، وأعيدت له السيطرة على دوقيات كليف ورافنزبرج Ravenzberg وبذلك أصبح ناخب براندنبرج أعظم الأمراء الألمان قاطبة ويلى الإمبراطور فقط فى الأهمية، كما أن هذا التوسع الجديد أعطى براندنبرج الفرصة لكى تنمو باطراد حتى تصل إلى مرتبة المملكة (مملكة بروسيا) ثم تستطيع منافسة النمسا والتغلب عليها، ثم يمكنها فى النهاية إحياء ذلك الاتحاد الألمانى الذى عمل صلح وستفاليا للقضاء عليه وبعثه من جديد فى ألمانيا.

وقد احتفظ مكسميليان دوق بافاريا بأقاليم البلاتينات العليا وبلقب الناخب فى الإمبراطورية وأما البلاتينات السفلى فقد أعيدت إلى شارل لويس ابن فردريك الخامس وأعطى أيضا لقب ناخب فى الإمبراطورية.

والواقع أن المانيا خرجت من هذه الحروب مفككة الأوصال مضعضعة القوى، بل إن صلح وستفاليا أكد الكيان المستقل لثلثمائة وخمسين ولاية ألمانية لكل منها الحق فى انتهاج سياسة خارجية خاصة.

وعلاوة على ما سبق، فقد اعترف صلح وستفاليا بانفصال سويسرا عن الإمبراطورية كذلك انهى هذا الصلح رسميا الحروب الطويلة بين

أسبانيا والأراضى المنخفضة الهولندية واعترف باستقلال هولندا نهائيا.

وتبدو أهمية هذا الصلح من الناحية الدينية، لأنه يشكل بداية عهد جديد فى تاريخ الحضارة الأوربية. فقد أقر هذا الصلح بعد فترة الحرب الدينية الطويلة مبادئ من شأنها نجاة البروتستنتية نهائيًا من الأخطار التى أحاقت بها، ومع أن صلح وستفاليا لم يمنح التسامح الدينى للأفراد فقد اختفى الاضطهاد الدينى منذ هذا الحين وصار من الأمور الشاذة.

وفى المائة وخمسين سنة التالية تغلغل مبدأ التسامح الدينى فى المجتمعات الأوربية لدرجة المبادئ التى اعترفت بها الإنسانية قاطبة.

والواقع أنه فى النصف الثانى من القرن السابع عشر عاد التوازن بين الأسعار والأجور، واختفت أكبر عوامل الاضطراب الاقتصادى والاجتماعى والدينى، وخرجت الحكومات من هذه الاضطرابات وهى أقوى مما كانت عليه بفضل زيادة مواردها ثم زوال الانقسامات الداخلية وهكذا كان فى إمكان الدولة الاعتماد على نفسها دون مساعدة الكنيسة بل وكان فى إمكانها أن تبذل جهودها للحد من سيطرة الكنيسة فى داخل حدودها، حقيقة بقى احترام العقيدة ذاتها لدرجة أن لويس الرابع عشر مثلا استطاع أن يتذرع بولائه واحترامه للعقيدة فيضطهد الهوجونوت فى فرنسا. ولكن الدولة فى هذا القرن كان فى مقدورها انتهاج السياسة التى تريد السير عليها فى علاقاتها مع الدول الأخرى مسترشدة فى ذلك بمصالحها التجارية والسياسية الخالصة.